المسيح والكوارث الطبيعية

المقدّمة

في كل مرة تهزّنا كارثة طبيعية مثل: زلزال، فيضان أو وباء، يعلو السؤال القديم الجديد: "أين الله مِن هذا؟"، وبصيغة أخرى: "أين المسيح؟". البعض يرى في هذه الكوارث غضبًا إلهيًّا، والبعض الآخر يشكك في صلاح الله أو حتى في وجوده. لكنّ النظرة الكتابيّة العميقة، خاصة في ضوء شخص المسيح، تقدّم إجابة مختلفة، من وجهة نظري هي ليست إجابة تفسيريّة بقدر ما هي إجابة وجوديّة، وهي تعلن أن الله ليس بعيدًا، بل حاضر في وسط الألم.

وبما أن كل المسيحيين في كل العالم يؤمنون بأن الرّب يسوع المسيح هو مركز إيمانهم، فهو إعلان الله الكامل والنهائي عن نفسه كما يقول الرسول يوحنا "الله لم يَرَه أحد قط، الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو خبر" (يوحنا 1: 18)، فالله تكلم بأنواعٍ وطرقٍ كثيرة، ولكن في المسيح نرى الله معنا، فكمال الحضور الإلهي ظهر وتجسد في المسيح يسوع. وبهذا يعتبر المسيح هو المرجعية الأساسية والحاسمة لإيماننا وعقائدنا وسلوكنا المسيحي، لذا نحن نذهب دائمًا للمسيح في أي طرح لاهوتي نقوم به.

إذًا في ضوء ذلك ونحن نقترب من قضية الكوارث الطبيعية بطريقةٍ لاهوتيّةٍ وكتابيّة، لابد وأن نذهب للمسيح في حياته وتعليمه حتى نرى كيف نتعامل نحن المسيحين مع هذه القضية. مع العلم أنه ليس بالضرورة أن نجد لكل مواضيع الحياة والوجود تأصيل في تعليم وحياة المسيح، ولكننا نجد في تعليم وحياة المسيح توجهات ومبادئ تصلح لكل الحياة في كل الجوانب.

لذلك سيرتكز هذا المقال بشكل رئيسي على النص الوارد في إنجيل لوقا والإصحاح الثالث عشر والأعداد من 1 إلى 5، ونسعى في هذا المقال أن نقدم الأفكار الآتية:

- عرض وشرح للنص الكتابي لوقا 13: 1–5.
- الكوارث الطبيعية في ضوء الإيمان المسيحي.
- شخص المسيح وسط الكوارث المؤلمة.
- المسيح والرجاء وسط الكوارث.

أولًا: النص (لوقا 13: 1–5)

> وكان حاضِرونَ في ذلِكَ الوقتِ يُخبِرونَهُ عنِ الجَليليّينَ الذينَ خَلَطَ بيلاطُسُ دماءَهُم بِذَبائِحِهِم. فأجابَ يَسوعُ وقالَ لهُم: "أتظُنّونَ أنَّ هؤلاءِ الجَليليّينَ كانوا خُطاةً أكثرَ من كُلِّ الجَليليّينَ، لأنَّهُم كابَدوا مثلَ هذا؟ كَلاَّ، أقُولُ لكُم! بل إنْ لم تتوبوا فجميعُكُم كذلكَ تَهلِكون. أو أولئكَ الثَّمانيةَ عَشرَ الذينَ سَقَطَ عليهمُ البُرجُ في سِلوامَ فقَتَلَهُم، أتظُنّونَ أنَّ هؤلاءِ كانوا مُذنِبينَ أكثرَ مِنْ جميعِ السّاكِنينَ في أُورُشليمَ؟ كَلاَّ، أقُولُ لكُم! بل إنْ لم تَتوبوا فجميعُكُم كذلكَ تَهلِكون".

يتحدث النص هنا عن كارثتين: الأولى هي مذبحة سياسيّة، والثانية هي حادثة طبيعية. الكارثة الأولى هي الجليليون الذين قتلهم بيلاطس وهو يخلط دمهم بذبائحهم، أي على الأغلب داخل الهيكل. والكارثة الثانية هي أن برج في سلوام سقط على 18 شخصًا بشكل تلقائي ومفاجئ.

وفي ذلك الوقت، كان هناك اعتقاد شائع أن من يموت بطريقة مأساوية أو يصاب بكارثة، فلا بد أنه أخطأ خطية عظيمة، وهذا ما رأيناه مثلًا مع المولود أعمى في (يوحنا 9: 2) عندما سُئِل المسيح عنه هذا السؤال: "مَن أخطأ، هذا أم أبواه؟"، فالكوارث المختلفة والمتنوعة كانت تُرى كعقوبة مباشرة من الله.

ولكننا هنا نرى الرّب يسوع يرفض هذا المنطق تمامًا، ويؤكد أن لا الجليليين كانوا أشرّ، ولا ضحايا البرج كانوا أكثر خطية، وأيضًا لا يتوقف عند هذا النفي، بل ينتقل إلى دعوةٍ جماعيةٍ للتوبة. فالرّب هنا يؤكد بوضوح وحسم أن الكوارث ليست دائمًا نتيجة مباشرة لخطيئة فردية، ولكنها تذكير بأن الحياة على هذه الأرض هشّة ومحدودة، وبدل مِن أن نسأل: "لماذا هم؟"، الأفضل أن نسأل: "هل أنا مستعد؟ هل أنا تائب؟" فدعوة المسيح هنا ليست لفهم سرّ كل كارثة، بل للاستعداد الروحي الدائم.

ونستطيع من هذا الحدث أن نستنتج بعض الدروس اللاهوتيّة والروحيّة مثل:

- تصحيح فكرة الجزاء الفوري: فليس كل ألم أو موت نتيجة لخطية معينة، هناك أبرياء يتألمون، وأشرار ينجون مؤقتًا، فالعدالة الإلهية لا تُقاس دائمًا بمعاييرنا الزمنية
- التوبة كاحتياج أساسي في العالم الساقط: يسوع لا يعطينا جوابًا عن الكارثة، بل دعوة لتغيير القلب، فالكارثة تذكّرنا بأننا لسنا خالدين، وأن الوقت الآن هو وقت التوبة.
- مساواة الجميع في الحاجة إلى النعمة: سواء كنت من الجليليين أو من سكان أورشليم، الكل مدعو للتوبة، فلا فرق في الخطورة الروحية بين مَن مات في حادثة وبين مَن ما زال حيًّا.

وبعد أن استعرضنا النص الأساسي الذي نبني عليه موقف المسيح من الكوارث الطبيعية، نريد الآن أن نقدم فكرة الكوارث الطبيعية في ضوء الإيمان المسيحي.

ثانيًا: الكوارث الطبيعية في ضوء الإيمان المسيحي

منذ السقوط الأول الذي حدث في جنة عدن في قصة آدم وحواء، دخل الشر إلى العالم، ليس فقط من خلال البشر، بل في الخليقة نفسها، فيقول الرسول بولس: "الخليقة أُخضِعت للبُطل... تئن وتتمخّض معًا إلى الآن" (رومية 8: 20–22)، فنستطيع أن نستنتج من الكتاب المقدس أن الزلازل، البراكين، والأعاصير، كلها تعبير عن عالم ساقط ينتظر التجديد، فالعالم الطبيعي لا يعمل كما صُمم في الأصل.

والسقوط لم يؤثر فقط في العلاقة بين الإنسان والله، بل أيضًا في النظام البيئي والخليقة كلها، وهذا ما نراه في الأنات المتكررة في الطبيعة. لذلك الله لا يسرّ بالكوارث لكنه يعمل من خلالها، فالكارثة ليست من فعل الله بمعزل عن رحمته، لكنها في بعض الأحيان مجال لعمل نعمته، كما نرى في قصة يوسف عندما قال: "أنتم قصدتم لي شرًا، أما الله فقصد به خيرًا" (تكوين 50: 20).

ثالثًا: شخص المسيح وسط الكوارث المؤلمة

نرى في لقب المسيح "عمانوئيل" الذي تفسيره "الله معنا" خير تعبير لموقف الله من الإنسان والبشرية كلها، فنحن من خلال التجسد، ومن خلال ما رأيناه في حياة المسيح وتعليمه، وأيضًا موته وقيامته، نستطيع أن نجزم أن المسيح يتألم معنا، ففي إنجيل يوحنا والإصحاح الحادي عشر خلال سرد قصة لعازر، يذكر النص الكتابي أن يسوع بكى عند قبر لعازر، وهذا يكشف عن عمق مشاركته في حزن الإنسان، فهو ليس إلهًا بعيدًا، بل قريب من المنكسرين، وكما يقول كاتب العبرانيين: "لأَنَّهُ فِي مَا هُوَ قَدْ تَأَلَّمَ مُجَرَّبًا يَقْدِرُ أَنْ يُعِينَ الْمُجَرَّبِينَ." (عبرانيين 2: 18).

كما إننا نرى أيضًا في حادثة تسكين العاصفة، المذكورة في إنجيل مرقس والإصحاح 4 الأعداد من 35 إلى 41، أن المسيح يهدئ الرياح والبحر بكلمة، مظهرًا سلطانه على الطبيعة. ولكنه يوبخ تلاميذه ليس لأنهم أيقظوه، بل لأنهم خافوا ولم يثقوا، فالمسيح معنا في السفينة، حتى إن كانت العاصفة قائمة.

لم يكتفِ المسيح بالكلام عن الألم، بل حمله في جسده على الصليب، وبهذا أعطى للألم معنى، وأصبح الألم طريقًا إلى القيامة. فالصليب بكيفية ما يُعتبر كارثة من الكوارث التي حلت على المسيح، وهو من أصعب الكوارث التي يمكن لأي إنسان أن يواجهها. وهنا نرى الله في المسيح، لا يقدّم تفسيرات وتبريرات، بالقدر الذي فيه يقدّم ذاته لأجلنا ومعنا، فالصليب كان ولا يزال هو أسمى تعبير عن تضامن الله مع الإنسان وسط الكوارث المؤلمة.

رابعًا: المسيح والرجاء في وسط الكارثة

في آخر إصحاحات وفي آخر سفر في الكتاب المقدس، نرى إشارات للحالة الأبدية التي سنكون فيها مع المسيح بعد القيامة، ونرى هذه الآيات البديعة: "هوذا مسكن الله مع الناس... وسيمسح الله كل دمعة من عيونهم" (رؤيا 21: 3–4)، وهنا نتأكد من جمال وروعة الرجاء المسيحي، فهو ليس تجاهل الألم، بل هو تجاوز له بقيامة المسيح وتجديد كل الأشياء، وشفاء الله الأبدي. فالمسيحية لا تدّعي أن الألم سينتهي الآن، لكنها تعلن أن له نهاية، وأنه يحمل بذور الحياة في طياته، فدموعنا ليست بلا معنى، لأن المسيح بكى قبلنا، وقام ليعطينا حياة لا تزول.

كما إننا نجد أيضًا في الكنيسة التي هي جسد المسيح في العالم المجروح، رجاء وسط الكوارث. ففي أزمان الأوبئة والكوارث، اشتهرت الكنيسة بخدمتها للمرضى والضعفاء، والعمل على مواجهة الأزمات بالخدمة العملية والصلاة أيضًا، فالكوارث تدعونا لنكون شهودًا على الأمل من خلال الرعاية، والحضور، والعزاء.

ختامًا، في الكوارث الطبيعية، كثيرون يسألون: "أين الله؟"، "أين المسيح؟"

والرد المسيحي الكتابي اللاهوتي على هذا السؤال هو: الله هنا، في المسيح، معنا وفينا. فالمسيح لا يفسّر الألم فقط، بل يحمله. لا يقدّم تحليلًا للأزمات، بل يقدم ذاته. وفيه، يتحوّل الحزن إلى رجاء، والموت إلى قيامة، والعالم المكسور إلى خليقة جديدة.